

الممياء : قوة الحديد والنار ، وتشابح القوة النصرية : قوة المدل والحرية » .

والمقاد يسط في مقدمة الطبعة الثانية آراء عميقة : منها أن الخير والشر في هذه الدنيا لا ينفصلان ، وأن أشرف ما يعرفه الناس من الحق غيرتهم على ما يعتقدون أنه الحق ، ولكن الحق الذي تعرفه غير الحق الذي تتوخاه حركات الكون ، والسعادة المطلقة لفرد واحد منها إبادة مطلقة للنوع ، وكثيرون من الخلق يشكون من تفاوت الأعمار والحظوظ ، فإذا تساوى الناس في كل شيء ، فأى دنيا تكون هذه وأى حياة ؟ ولو أن هؤلاء الشاكرين صار إليهم أمر الكون لحاربوا في تسييره فهدموا ، لأنهم لا يعرفون كيف يوفقون بين أجزائه التفاوت المختلفة ، لأنهم ناقصون ، ومحسبون أن الكون فوضى لأن جميع أجزائه غير كاملة ... فإذا أردنا حياة سعيدة أقرب إلى الكمال فلننقهيها بلعنبا ، ولا نحاول التعبير عنها بلعنبا ، فقد صورت حقائقها مرة واحدة في كتاب نحن حروفه وكلماته وأرقامه ، فنحن إذن النتيجة لا المسألة ... والحروب دائماً ترزّل العقائد وتطفر بالناس والأخلاق ، ومقاييسها طفرات أخرى غير المؤلفه ، فتشكك قوماً وتجذب إلى الدين آخرين ... ولكنه يعتقد أن الفرة على الحق هي روح الإنسانية ، أو هي مظهر أنانيتها وحب البقاء فيها ، فإذا أريدت حياة سعيدة ، فليسمع الناس صوت الطبيعة على سجيته قبل أن يضطروا إلى سماعه زججرة ووعيداً ، وليسمعه كل إنسان على شاكلته : الشرير فيبادي في شره ، والأمة فتقتضى على هذا الشرير ... ونسمة الإنسانية فتحنى على الأمة التي تفرط في حقوق الحياة ، أو تمسخ عناصرها الباقية في الأمم إشاراً لنافعها المحدودة « وما دام هذا الصوت مسموع النداء ، فالعالم الإنساني ممدود البقاء »

وقد شرح العقاد هذه الآراء شرحاً جيلاً في رسالته ، على ألسنة الحيوان والإنسان ، فهو يتخيل الغاب ، وقد وجد إنسان نفسه في هذا الغاب ، ورأى هناك امرأة جميلة جليلة ولكنها ضريرة . هي الحياة ، أم المخلوقات ، وقد دعتهم إليها لتلقى إليهم



مجمع الأحياء

كتاب العقاد قير فرادته الزم



كان فرحى بظهور هذا الكتاب فرحاً عظيماً ، لأن إعادة طبعه كانت رغبة ، بل أمنية ، انتهت منذ بضعة عشر عاماً . وظهوره في طبعته الثالثة يدقاً في المكتبة المصرية ، لأن طبيعته الأوليين قد تآكلت ولم تستطع الحصول عليه لندرة وجوده ، فلما ظهرت هذه الطبعة تلقيناها فرحاً فاف هو هذا الكتاب ؟

إن مقدمات العقاد لكتبه هي غالباً مفاتيح لشخصيته العظيمة المتعددة النواحي في تلك الكتب العديدة ، وهي شروح للظروف التي أوجت بها ، ولما تؤثرت التي أحاطت به فكتبها ، فلترجع إلى تصدير الطبعة الثالثة حيث يقول : « هذه الرسالة وليدة الحرب العالمية الماضية ... شغلنى موضوعها يومئذ ، لأنه موضوع الصراع في الحياة الإنسانية ، بل في الحياة عامة ، وأحببت أن أعرف لهذا الصراع معنى يطمئن إليه الضمير ، فأنهيت بالرسالة إلى معنى فيه بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، وهو أن الحق والنواميس الطبيعية يتلاقيان »

ويقول فيها أيضاً : « وما هي ذى الطبيعة الثالثة لمجمع الأحياء تصدر والدنيا مشغولة بحرب عالمية أخرى هي أشد هولاً وأوسع مدى وأقوى اختلافاً على المبادئ والآراء من الحرب التي نشبت قبل ثلاثين سنة ، فإذا كان هناك خاطر يرد على الذهن في تصدير هذه الطبعة — خلال هذه الحرب القائمة — فذلك الخاطر مما يركى موضوع الرسالة ويؤيد تيجتها ، أو يسير بنا في وجهتها ، وهي أن الصراع الأكبر الذي نشهده اليوم سينتهي أيضاً إلى عاقبة فيها بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، لأنها تناقض القوة

بنياً خطير ، فأمرعوا من كل حذب وصوب يستمعون إليه ، وكل يراها في الهيئة التي يصورها له وهمه وخياله . .

وألفت عليهم كلامها فإذا هي تعاتب المخلوقات كلها على ما شجر بينها من خلاف وبغضاء وفتنة ... بطلن الأبيض على الأسود والأصفر على الأبيض وهذا على ذلك . وهي تدعوهم إلى الوثام فيما بينهم على اختلاف المذاهب والألوان ، ثم تشير على الإمامة - رمز السلام - لتحدثهم عن علم الإنسان وتواريحه وأديانه ، ليكون لهم منها عظة وعبرة وزاجر . فيؤمنون جميعاً على كلامها ، وكلهم طاهر الرضى والافتناع !

ووقت الإمامة تتكلم ، فذكرت حقائق من التاريخ الملموس المتكرر كل يوم ، بدأتها بالآية الكريمة « وزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض » . وشرحتها بالشواهد الملموسة ، وطالبت بالعدل والرحمة والأخاء بين القوى والضعيف !

وحينئذ وقف الثعلب قائلاً : وعظمتكم الإمامة وأوتيتكم بالضعفاء وقالت لكم إن الله بارك في مخلوقاته الضعيفة ليحرم عليكم قتلها ... ثم يعارض الثعلب الإمامة في كل ما قالت ويتملق القوة والأقوياء فيفوز أثناء كلامه (بتصفيق من جانب الأسد !) - أقوى الحيوان - وهو يتكلم كلاماً منطقياً عن العرف والقوانين ، فالسارق إذا سطا على بيت فضحوه ، والقاتل إذا سلب أمة أو أعمل فيها قتلاً عظموه ! وينتهي الثعلب ، ويضج الآخرون بين معارض ومؤيد ، ثم يقوم القرد - وهو يمثل الطموح أو الطماع ... ولكنه التدين ذو الضمير الحى المتمسك بالعدل والحقوق والقوانين والوحدة . فإن في تماسك الضعفاء قوة ضد القوى الظالم الجبار . والديمقراطية الصحيحة النليمة جذيرة بمخلق شموه نابغة صحيحة . أما الأرستقراطية المتعالية المتألهة فخالها وما آل خثالة شعبها جميعاً إلى الخسارة والفناء ، أو للصير الذي هو أسوأ من الفناء . هو حياة كاحية السائمة التهاككة !

ويا لها من مفارقة عجبية ! يدافع القرد عن الديمقراطية الصحيحة والأخاء والضمير ، ويحمل على مبدأ القوة الفاشية .

فيفضب الثمر فيكاد يضره فيتملق القرد بأطراف الشجرة ، ثم يقف الأسد فيها به الثمر فيخرس فالقرد الفيلسوف لم يستطع دقاً عن نفسه ، والأسد الشرس الأعم أرب الثمر ، ولا فصاحة ولا بلاغة ولا فلسفة !

فأخلاق الأسد هي أخلاق بني الإنسان الجهلة الأقوياء . القوة الظالمة الفاشية ولا شيء غيرها !

ثم تكلمت المرأة . وكان كلامها طبيعياً ، تنكث اثرثرة الأبدية الخالدة عن حقوقها التي اغتصبها منها الرجل ، وعن نبوغها في أشياء وتقديرها في الأخرى ، ولكن الذنب ذنب الرجل ، وكأنها إن أصابت فن وحى عبقرتها . وإن أخطأت فن ظلم الرجل وتجنه عليها !

وها هو الرجل يعقب عليها فيقول إنه كان يحذر كل الحذر من يوم تعمل المرأة فيه إلى نصيب ولو قليل من الحرية لأنها شديدة الطيش والغرور ، ولا تنال القليل حتى تطمع في الكثير ، ولو أنها حرمت كل شيء لما طمعت في شيء ما ، وهي تخلط كل شيء بسفاسفها والأعيبها .

ثم ينكر عليها الحرية المطلقة التي تطلبها ، وهي تطلبها لأنها نوع جديد من الزينة ، وهي لا تفهم لها معنى ... وهذا كلام حق !

فالرأى الذي ينادى به العقاد هنا - منذ ثلاثين عاماً - يرجع العالم إليه فيندد بتلك الحرية التي منحها للمرأة فأساءتها . وقد خرجت كتب كثيرة هذه الأيام في المناداة بهذا الرأى ... ثم يقول الرجل : « أى مساواة للرجل تدعيها المرأة وهي إلى اليوم لا تجاريه في صناعة الطهي لو شاركها فيه ؟ »

فالمرأة لا تجيده وهي التي قضت الدهور والأجيال في تعلمه ، لأنه صناعتها الأولى ! فهل ملته ؟ وإذا كانت ملت هذه الوظيفة الطبيعية التي خلقت لها والتي أهلها لها الطبيعة - كما أهلها لوظائف الأمومة التي سلحتها لها بكل سلاح من تركيب الجسم ومن درجة الجمال - فما بالك بوظائف الرجل تراحه فيها ؟

مبين غنام